IX 9Marks سلسلة بناء الكنائس الصحيحة

الصّلاة

ما دور الصَّلاة الجماعيَّة في الكنيسة؟

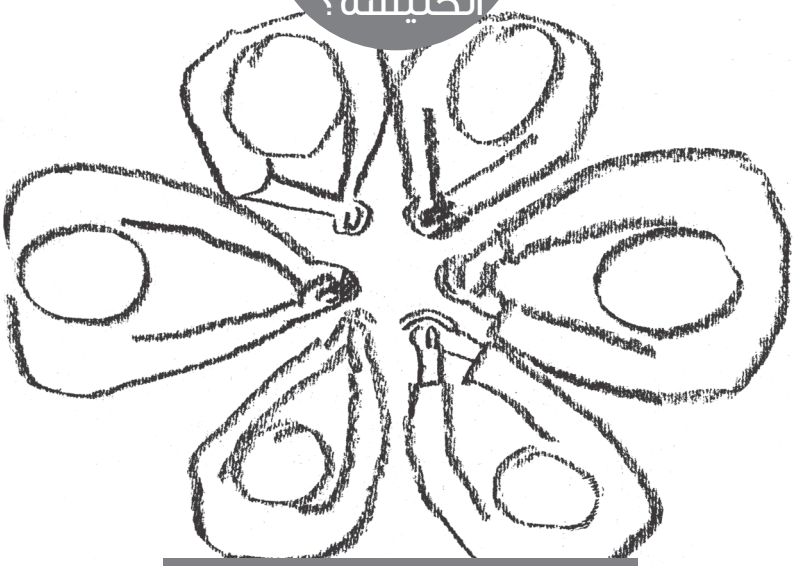

جون أونوشكوا

١

التنفُّس مجدَّدًا

مشكلة عدم الصَّلاة

الصَّلاة عمليَّة تنفُّس

حسنًا، ها أنت تقرأ كتابًا آخَر عن الصَّلاة. ربَّما لم تُشعرك قراءة الكتاب السَّابق بالذَّنب بما يكفي، وربَّما تعشقُ العملَ الجادَّ والشَّاقَّ، لذا سأستَعينُ باقتباسٍ يُبرِزُ قُصورك في الصَّلاة: "مؤمنٌ بلا صلاة، مثل إنسان بلا تنفُّس!"[١]

ولأعترفْ لك بكلّ جِدِّيةٍ أنَّه لم يسبقْ لي أن قرأتُ اقتباسًا أقوى وأصعب من هذا الاقتباس عن الصَّلاة. تُعبِّر عمليَّة التنفُّس– بوصفها استعارةً تُجسِّد الصَّلاة المسيحيَّة– عن الكثير من كينونةِ الصَّلاة، وتُذكِّرنا بأنَّ الصَّلاة أساسيَّة لوجودنا وحياتنا.

التنفُّس ضروريٌّ ومهمٌّ لحياتنا وأفعالنا ونشاطاتنا. وبالمثل، الصَّلاة أساسيَّة وحيويَّة ومرتبطةٌ بوجودنا الحاليِّ واستمرار حياتنا؛ فالصَّلاة

1 Google's test of omniscience fails here. Apparently only God knows where this quote originated. Some say Martin Luther, others say Martin Luther King Jr. Seeing as to how MLK was named after Martin Luther, let's just attribute this to both of them.

عمليَّة تنفُّس، وهذا أفضل تشبيه يوضِّح ما يجب أن تكونَ عليه الصَّلاة بالنسبة إلى المؤمن بالمسيح.

لهذا السَّبب يبدو صراعُ مؤمنين كثيرين مع الصَّلاة محيِّرًا جدًّا. أليس من الغريب أن يؤمنَ الكثير من المؤمنين بهذه الحقيقة من حيث المبدأ، لكنَّ تطبيقه العمليَّ في الوقت نفسه يكون على يد القليل من الكنائس؟ في الواقع، ليست مشكلتنا في الطَّريقة التي نتحدَّث بها بشأن الصَّلاة؛ فنحن نتحدَّث بشأنها بكلِّ حماسةٍ وبلاغة، بل تكمن في طريقة تعاملنا معها؛ فممارستنا للصَّلاة لا تتوافَق مع تصريحاتنا عنها، وهو ما يدلُّ دائمًا على وجود أمرٍ ما خاطئٍ (راجعْ يعقوب ٢).

ليس من المرجَّح أن يكونَ غيابُ الصلاةِ غيابًا كاملًا في الكنيسة مشكلةً محتمَلة. ربَّما لا تُصلِّي إحدى الكنائس في مكانٍ ما، لكنِّي لا أفترض أنَّ هذا ما يحدُث في كنيستك. غالبًا لا أعرف كنيستك، لكنِّي واثقٌ بأنَّ ثَمَّة أوقاتًا تجتمعون فيها معًا للصَّلاة، تكون متفرِّقةً وغير منتظمة، لكنَّها تحدُثُ من حينٍ إلى آخر.

وهنا يكمن ما أعتقد أنَّه أكبر مشكلة: قلَّة الصَّلاة وليس عدم الصَّلاة. ويأتي اقتباسٌ آخرُ يبرزُ المزيدَ من المخاوف عن الصَّلاة: "تأتي إلى بعض الشُّرور الصَّارخة في هذه الأيَّام، وربَّما في كلِّ الأوقات والأزمنة، وهي عدم الصَّلاة أو قلَّتها. وبين هذَين الشَّرَّين، ربَّما تكون قلَّة الصَّلاة أسوأَ من عدمها، لأنَّ قلَّة الصَّلاة نوعٌ من التَّظاهُر والزّيف وتحفُّظ الضَّمير والوهم والضَّلال. ويظهر تقديرُنا القليل للصَّلاة في قلَّة الوقت الذي نُخصِّصه لها."[٢]

2 E. M. Bounds, *E. M. Bounds on Prayer* (Peabody, MA: Hendrick- son, 2006), 118.

حين تكون الصَّلاة متفرِّقةً وغير منتظمةٍ وتكون كافيةً فقط لتهدئة الضَّمير، نقع عندئذٍ في مشكلة. فنحن جميعًا كنَّا جزءًا من كنائسَ كانت الصَّلاةُ تُرفَعُ فيها لكن من دون هدف أو فعَّاليَّة. والمؤسف أنَّ صلواتنا في الكنيسة كثيرًا ما شابهَتِ الصَّلوات التي نتلوها قبل تناوُلِ الوجبات، وعادةً ما تكون إلزاميَّةً ومهذَّبةً، لكنَّ لا أحَدَ تقريبًا يستفيد منها. وهكذا تتقلَّص الصَّلوات في كنائسنا إلى وسيلةٍ للانتقال من نشاطٍ إلى آخر. فلنُغمِضْ جميعُنا أعيُننا ونحني رؤوسنا حتَّى لا يبدو انتقالُ فريق التَّسبيح إلى المنبر أو نزولهم منه أمرًا لافتًا.

هل ترى خطورةً في قلَّة الصَّلاة؟ حين ترفع الصَّلاة، فإنَّها تقول شيئًا وتُعلِّم الكنيسة أنَّها تحتاجُ حقًّا إلى الرَّبِّ وحدَه، لكنْ حين تغيبُ الصَّلاة، فإنَّها تؤكِّد افتراضَ أنَّنا على ما يُرام من دون الله. كما أنَّ الصَّلاة غير المنتظمة تُعلِّم الكنيسةَ أنَّها تحتاج إلى الله فقط في مواقفَ وأحوالٍ محدَّدةٍ وليس في كلِّ الأوقات، وتعكس أنَّ معونةَ الله ضروريَّة من وقتٍ إلى آخر، وليس باستمرار. فضلًا عن ذلك، تقود الصَّلاةُ غير المنتظمة الكنيسةَ إلى الإيمان بأنَّنا نستطيع القيامَ بأمورٍ كثيرةٍ من دون الحاجة إلى معونة الله؛ فنحن لا نحتاج إلى إزعاجه سوى حين نجتاز في مواقفَ صعبةٍ. تأمَّل معي لحظةً في الأحداث العنصريَّة المثيرة التي ضربَتِ الولايات المتَّحدة في صيف ٢٠١٦م. في أسبوعٍ واحدٍ شهدت البلادُ مقتل فيلاندو كاستيل وألتون ستيرلينغ وخمسة من ضبَّاط الشرطة في دالاس، وانحازَ الناس إلى الطَّرفين المختلفَين، ولكلِّ طرفٍ ما يدعو إلى الحزن. وعلى إثر هذه الخلفيَّة، عقدَتْ كنائسُ عدَّة اجتماعات صلاة جماعيَّة لكنائسهم وقادتهم وأُمَّتهم ومجتمعاتهم، واجتمعت بعض الكنائس

مع كنائس من طوائفَ أُخرى. وعلى مدى مدَّةٍ وجيزة، كانت صلواتنا تبدو فعَّالة وملحَّة وهادفة، وكانت صرختنا: "يا الله، نحتاج إلى معونتك!"

بمجرَّد مرورِ هذه الأزمة، توقَّفت الصَّلاة الجماعيَّة. أليس هذا الموقف معبِّرًا جدًّا؟ إنَّه يكشفُ عن تعاملنا مع الصَّلاة على أنَّها أمرٌ خاصٌّ الهدف منه الاهتمام بالأشياء التي لا يمكننا التعامل معها بمفردنا. نحن لا نتعامَل مع الصَّلاة على أنَّها عمليَّة تنفُّس، بل وصفة طبِّيَّة الهدف منها أن تُخلِّصنا من العدوى. وبمجرَّد أن تنتهيَ العدوى، تتوقَّف صلواتنا وتقلُّ حماستُنا.

لحظةُ صدق

فلأكُنْ صريحًا جدًّا معكم. ما دمتُ لستُ مضطرًّا إلى النَّظر في عينَي أيٍّ منكم، أشعُر بمزيدٍ من الشَّجاعة التي تدفعني إلى الاعتراف بأخطائي. إذا كنت مثلي ويُمكن أن تُشعِرك قراءةُ كتابٍ عن الصَّلاة بالفشل، فاعلَمْ أنَّ تأليفَ كتابٍ عن الصَّلاة يجعلُني أشعرُ بأنِّي منافق، وأعترف بأنَّني لستُ خبيرًا في الصَّلاة، ولا أشعر بأنِّي متمكِّنٌ منها، ولا أستطيع كتابة عبارة "جبَّار بأس في الصَّلاة" في سيرتي الذاتيَّة، لكنِّي أُصارع مع الصَّلاة، وأشعُر دائمًا بأنَّ صلواتي غالبًا ما تكون ضعيفة.

أقول هذا لأنِّي رأيتُ رجالًا كانوا جبابرةَ بَأسٍ في الصَّلاة، وأعرف أنِّي لستُ واحدًا منهم، لكنَّ والدتي كانت بين أولئك الجبابرة. أتذكَّر أنِّي كنتُ أُشاهدها تعودُ إلى المنزل من العمل كلّ يومٍ وتُلقي التحيَّة علينا بإيجازٍ وتدخُل غرفتها. في هذه الأيَّام، كان بابُ غرفتها متصدِّعًا، وكنتُ أُحاول النظر إليها من شقوق الباب، فوجدتُها جاثيةً على ركبتَيها بجوارِ

سريرها لتُصلِّي وتَخرُج شخصًا مختلفًا. كانت تفعل ذلك كلَّ يوم إلى يومنا هذا، ولا تُنهي المكالمة الهاتفيَّة معي قبل أن تُصلِّي لأجلي. وإنْ نَسِيَتْ، تُعاود الاتِّصال بي وتترك رسالةً صوتيَّةً بالصَّلاة التي رفعَتْها لأجلي. وكان والدي أيضًا رجلَ صلاةٍ ويفعل الشَّيء نفسه. وحين زرعَ والداي كنيسةً عام ٢٠٠١م، ورثَتْ كنيستُهُما جيناتِ الصَّلاة منهما بالطريقة ذاتها التي ورثْنا نحن بها أنفَيْهما.

كان والداي والرُّعاة والوعَّاظ والمؤلِّفون الذين أثَّروا فيَّ جميعهم رجالًا ونساءً جبابرةَ بَأسٍ في الصَّلاة، وكنت أشعُر بالخزي حين أُقارن محاولاتي الفُضَل في الصَّلاة بهم. أعرفُ معنى أن تكون محاربًا في الصَّلاة لأنِّي شاهدتُ محاربين كثيرين في الصَّلاة، وليس لأنَّني جسَّدت هذه الصِّفة طَوال حياتي المسيحيَّة في الإيمان. في معظم رحلتي، وجدتُ نفسي أفتقرُ إلى الصِّفات التي أُحبُّها.

نقطةُ تحوُّل

منذ بضع سنوات، حدثَ أمرٌ فظيعٌ ورائعٌ في الوقت نفسه. قبل ستَّة أسابيعَ من بداية رعاية الكنيسة التي أقودُها حاليًّا، تُوُفِّي أخي الذي كان يبلغ من العمر ٣٢ سنةً فجأة بلا أيِّ تفسيراتٍ أو أسبابٍ للوَفاة. ولم يُظهِرْ تشريحُ الجثَّة أيَّ سببٍ قاطع. لم تحدُثْ جريمةُ قتل، لكنَّه رحل عن عالَمنا، وشعرتُ للمرَّة الأولى في حياتي بصدمةٍ بالغة، وصِرتُ أتنفَّسُ بصعوبة. وإذا سبق لك أنْ مرَرْتَ بهذا الشُّعور، فَستعرف أنَّه يعقِّد كلَّ الأمور. لكنَّ هذه المأساة تحوَّلتْ بنعمة الله إلى أفضلِ فرصةٍ حدثَتْ في علاقتي بالربِّ وكنيستنا، فقد استخدمَ الله هذا الموقفَ الفظيعَ لولادة شيءٍ رائعٍ فيّ.

في الحقيقة، هذه أوَّل مرَّةٍ أبكي فيها منذ شهور. كنتُ أظنُّ أنَّني تغلَّبتُ على أحزاني التي شعرتُ بها بسبب وفاةِ أخي، لكنْ لا يزال قلبي حسَّاسًا إلى أبعد حدٍّ وأنا أُفكِّر في هذا الأمر. استخدمَ الله الصَّدمةَ والشُّعورَ بعدم القدرة على التنفُّس، سواء بالمعنى الحرفيِّ أمِ المجازيّ، ليكونا وسيلةً تُساعدني على فَهم أنَّ الصَّلاة عمليَّة تنفُّس.

تلاشَتْ قُدرتي على انتقاء الكلمات، وتبعثرَتِ العبارات منِّي، واختلَّ لساني في الصَّلاة، وشعرتُ بالصَّدمة والراحة في الوقت ذاته، وبالخزي والغضب معًا من الكلمات التي ينطق بها فمي، وادَّعيتُ أنَّ الله كاذبٌ وقاسٍ ولا يهتم بالآخرين. وفي الوقت ذاته، طلبتُ إليه أن يغمرَني بنعمتِه، وشعرتُ بالاحتقار والغضب والكراهِيَة واعترفتُ له بشعوري، وخرجَ كلُّ شيءٍ منِّي بتلقائيَّة. وشعرتُ بأنَّ الألم مثل ترياق الحقيقة الذي أجبرني على الاعتراف بكلّ أفكاري الجائرة عنه، وفي المقابل استمع الله إلى كلِّ حرفٍ خرج منِّي، وصحَّح نظرتي السلبيَّة بكلِّ كلمات التعزية من دون أيِّ توبيخ.

وعلى الرغم من أنِّي كنت غارقًا في أحزاني، فقد أفرغ الله خزَّان الأكسجين خاصَّتي ليُجبرني على الاقتراب إليه والتنفُّس. وحين اقتربتُ إليه، لم يستقبلْني بالجفاء والبرودة اللَّذَين أستحقُّهما، بل كان فاتحًا ذراعَيه بكلّ ترحاب. فاكتشفتُ أنَّ ما كنتُ أفعلُه من قبل لم يكُن صلاة، بل كان شيئًا رسميًّا وباردًا وعقيمًا تدرَّبتُ عليه وحفظتُه عن ظَهر قلب. وشعرتُ للمرَّة الأولى في حياتي بأنَّني أُدرك معنى الصَّلاة والتَّواصُل مع الله والشَّركة معه. حين شاركتُ الله بهموم قلبي، تقابَلتُ مع إلهٍ يهتم بالاستماع إلى مشكلاتي التي أُشاركها.

حوَّل الله أنفاس أخي الأخيرة لتكونَ بعضَ أنفاسي الأولى، ونتيجةَ ذلك، تمحورَتْ حياتي كلّها حول الصَّلاة التي صارَتْ محورًا في الكنيسة التي كنتُ أستعدُّ لقيادتها في ذلك الوقت. وهكذا ساعدَتْني مأساةُ وفاةِ أخي وصِعابٌ عدَّة أُخرى اجتازتها كنيستنا في بدايتها على توكيد هذه الحقيقة التي كثيرًا ما نغفلها: أنَّ الصَّلاة حيويَّة وضروريَّة للحياة الرّوحيّة مثلها في ذلك مثل عمليَّة التنفُّس.

مفتاح الخدمة الفعَّالة

على مدار العقد الماضي، حظيتُ برعاية كنيستَين، وشاركتُ في شبكاتٍ وهيئاتٍ وكلِّيَّاتِ لاهوت وتجمعات ومجموعات مسيحيَّة أُخرى. وجلستُ مع قادةٍ أصحاب رؤية يقودون كنائس تتبع أنظمة عظيمة، مثلما جلستُ أيضًا مع قادةٍ بلا رؤى يقودون كنائس تتبع أنظمة ضعيفة وفقيرة. خدمتُ مع أفرادٍ يتميَّزون بمواهبَ رائعةٍ وأشخاصٍ يتمتَّعون بمواهبَ متوسِّطةٍ وآخرين من دون مواهب أو كفاءة بتاتًا. دخلتُ في شراكةٍ مع كنائسَ جذَّابة وأُخرى تُركِّز على الإرساليَّات، وكنائس تحضرها أعداد ضخمة وأُخرى متوسِّطة وأُخرى ضئيلة. في أثناء تجرِبتي، تعلَّمتُ أنَّ هذه الفروق ليسَتِ الأهمَّ، لكنَّها هامشيَّةٌ وثانويَّة. وإنِ اضطُررت إلى رَسْم خطٍّ يفرِّق ما بين فئتَين من الكنائس، لَما كانت تلك الفروق موضع تركيزي. فقد تعلَّمتُ أنْ أُفرِّق بين الكنائس التي تُصلِّي وتلك التي لا تُصلِّي. وسأشرح لاحقًا أنَّ التزامَ الكنيسة تُجاهَ الصَّلاة هو أحدُ أكبر العوامل المحدَّدة لفعَّاليَّتها في الخدمة؛ فالصَّلاة هي الأكسجين الذي يستنشقه المؤمن ويُحافِظ على استمرار حياتِه، من ثَمَّ هي مصدرُ حياة أيَّة جماعةٍ من المؤمنين؛ فالصَّلاة للكنيسة مثل التنفُّس للبشر. لكنْ يمكن تشبيه

الكثير من اجتماعاتنا بأشخاصٍ يجتمعون معًا لمجرَّد حَبْس أنفاسهم الجماعيَّة، وهو ما يُوضِّح سبب عدم تمتُّع النَّاس بطاقةٍ تُساعدهم على أن يعيشوا الحياةَ المسيحيَّة حقًّا.

لكنَّ التنفُّس معًا هو ما تحتاج إليه الكنيسة؛ فتساعدُنا الصَّلاة على التواضُع مثل أيِّ شيءٍ آخر. حين نُصلِّي، نتذكَّر أنَّ الصَّلاة ليسَتْ مثل الانضباطات الأُخرى التي تتطلَّب قدرةً رائعةً وممارسةً متزايدةً بُغيةَ تحقيقِ نتائج كبرى. إذا كان أَحَدُ الأشخاص يأملُ في نَيلِ مكافأةٍ أو تعويضٍ مقابل العزف على إحدى الآلات الموسيقيَّة مثلًا، فيجب أن يُحقِّقَ أوَّلًا مستوًى من الخبرة على مرِّ السِّنين بالممارسة. وتتحقَّق النتائج الكبرى بعد اتِّباع نظامٍ شاقٍّ وطويلِ الأمد؛ فلا يحصل المبتدئون على أيِّ نوعٍ من المكافأة الأوَّليَّة.

وهذا ما يحدُث في الصَّلاة أيضًا، لأنَّ النتائج الكبرى لا تتحقَّق مباشرةً من اتِّباع نظامٍ جادٍّ وشاقٍّ وخبرةٍ طويلة، بل تأتي من إلهنا الرؤوف المتسلِّط على كلِّ شيءٍ، الذي يكافئ شعبَه الصَّارخ إليه بمكافأةٍ عظيمة.

تتحقَّق الكثير من الإنجازات العظيمة في الصَّلاة للمبتدئين؛ فمثلًا، تقابَل إبراهيم مع الله الذي استمعَ إلى صلاته التي تطلبُ العفو عن المدينة التي يُقيم فيها ابن أخيه (تكوين ١٨: ٢٢-٣٣). وتقابَل موسى مع الله عند العُلَّيقة المشتعلة، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتَّى نجحَ تشفُّعه لإنقاذ شعب إسرائيل (خروج ٣٢: ٣١-٣٤). وفي غضون الأيَّام الأربعين اللاحقة لقيامة يسوع وصعوده، بدأ التلاميذ بالصَّلاة بطريقةٍ مختلفة، إذ توقَّفوا عن الصَّلاة لسلامة أنفسهم وحِفْظها، بل طلبوا المزيد من الأمانة

والإخلاص والشَّجاعة والجرأة لنَشْر رسالة الإنجيل (راجعْ مرقس ٨: ٣١-٣٤؛ أعمال ٤: ٢٣-٣١؛ ٥: ٤٠-٤١). لقد كافأ الله صلواتِ المبتدئين، ما شجَّع شعبه على الصَّلاة باستمرار.

إذا كانت الصَّلاة مثل التنفُّس، فلا يتعلَّق الأمرُ بخبرتنا، بل باختبارنا قوَّة مَن نرفع الصَّلاة إليه، وبالآمال الكبيرة التي تنمو فينا حين نمتلك اختبارًا حقيقيًّا مع الله الذي يسمعنا ويستجيب. فلا نحتاج إلى خبراء، وهذا تشجيعٌ قويٌّ للكنائس الملآنة بالكثير من الأعضاء وللرُّعاة الذين يشعرون بأنَّهم مبتدئون. فقد اختبرْتُ جَمال الصَّلوات البسيطة التي تتلاقى مع مشيئة الله وإنَّ كنيستنا ترفع مثلَ هذه الصَّلوات. يُشبه الأمرُ كثيرًا استنشاقَ النَّفَس الأوَّل بعد التعرُّض لصَدْمة، وتجعلك التجرِبة متحمّسًا لاستنشاقِ نَفَسٍ تلوَ الآخر.

لمحةٌ عن هذا الكتاب

لن يتناوَلَ هذا الكتابُ كثيرًا الصَّلاةَ في حياة المؤمن بالمسيح إذ تتوافَر كتبٌ أُخرى أفضل وأشمل من هذا الكتاب الذي يُركِّز أكثر على الصَّلاة في حياة الكنيسة. وحين يتعلَّق الأمر بالصَّلاة الجماعيَّة، ما الذي تحتاج كنائسنا إليه أكثر من التَّشجيع؟

كانت لديَّ مجموعةٌ واسعةٌ من العلاقات بالمؤمنين والرُّعاة الآخرين لأنِّي ساعدْتُ في قيادة كنائس مختلفةِ الأحجام والموازنات والأماكن. ومن واقع خبرتي المتنوِّعة، صِرتُ مقتنعًا بأنَّ الصَّلاة من أهمِّ مفاتيح الخدمة النَّاجحة، وهي ضروريَّة وأساسيَّة حالها حال التنفُّس. وليس المقصودُ من الصَّلاة أن تحلَّ محلَّ عملنا بل أن تُمكِّنه. إذا كنَّا نريد رؤيةَ الكنائس تنمو

وتزدهر في أمانتها لله، فيجب أن تصلِّيَ هذه الكنائس كما لو أنَّ حياتها تعتمدُ على الصَّلاة، وعلينا أن نتعلّم التنفُّسَ معًا.

صلاتي ألَّا يوضَع هذا الكتاب على الرَّفّ. لن تفقدَ بعضُ الكلاسيكيَّات المسيحيَّة الرائعة أهمِّيَّتها حتَّى مجيء المسيح ثانية، لكنَّ صلاتي أن يصيرَ موضوعُ هذا الكتاب في القريب العاجل قديمًا ولا فائدة منه مثلما يتحدَّث كتابٌ عن "كيف تتنفَّس مع عائلتك على العشاء؟"، وأن تُصبِح الصَّلاة الجماعيَّة سِمةً تتميّز بها الكنيسة.

صلاتي أن يكون هذا الكتاب للبُنيان عندما تخور قوانا، ولا يكون مجرَّدَ وسيلةٍ لإقناعنا بأنَّ طاقاتِنا يجب أن تُوجَّه نحو الصَّلاة الجماعيَّة في المقام الأوَّل. صلاتي أن يكون الصُّراخ المنتظم والحارُّ والجماعيُّ إلى أبينا السَّماويِّ أمرًا عاديًّا ومتوقَّعًا حتَّى يبدو مضحكًا أنَّ شخصًا مثلي قد أمضى وقتًا في تأليف مثل هذا الكتاب عن الصَّلاة الجماعيَّة. أُصلِّي أن يحدُث هذا الأمر يومًا ما. لكنْ ما دامَ هذا اليوم لم يأتِ، فلنبدأ هذه الرِّحلة معًا ونُصلِّي طالبين البركة من الله.